مظاهر تأثير المبادلات التّجارية بين المغرب الأوسط والسّودان الغربي وأثرها في تحوّل البنى الاجتماعيّة للسودان الغربي

The manifestations of the impact of trade exchanges between the Central Maghreb and Western Sudan and their impact on the transformation of the social structures of Western Sudan

ط د. خولة عمامرة *

جامعة البليدة. 2 – لونيسي علي

amamrakhaoula@gmail.com

د. مُحمَّد الشَّريف سيدي موسى

جامعة البليدة. 2 – لونيسي علي

Med.moussa062@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/05/02 تاريخ القبول 2021/05/21 تاريخ النشر 2021/07/05

الملخص: المتتبع لواقع التّواصل بين المغرب الأوسط والسُّودان الغربي يجد أنَّ أسسه كانت تجاريَّة محضة منذ العصور القديمة، لكن بمجيء الإسلام أصبحت تحمل في طياتها أهدافاً دعويَّة فتحويَّة، بواسطة السُّلوك القُدوي الذي أدى إلى خلق حالة من التَّأثر تجلَّت في عدَّة مظاهر، كانت نتيجتها إحداثِ تحوُّلٍ في البنى الاجتماعيَّة ظاهراً وباطناً داخل مجتمع السُّودان الغربي، من اعتناق للإسلام ولحاق بركب الحضارة الإسلاميَّة.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحيَّة: التَّأثير – المبادلات التِّجاريَّة – المغرب الأوسط – السُّودان الغربي – البنى الاجتماعيَّة.

Abstract: Those who observe the reality of communication between the central Maghreb and western Sudan finds that its foundations were purely commercial since ancient times, but with the coming of Islam it had become carrying within it the goals of advocacy and conquest, by way of behavior that led to the creation of a state of influence that manifested itself in several manifestations, the result of which was a transformation in the structures Socialism, both outwardly and inwardly, within Western Sudanese society, from embracing Islam and catching up with Islamic civilization.

Key words: influence - trade exchange - central Morocco - western Sudan - social structures.

مُقدِّمة:

تُعدُّ المبادلات التِّجاريَّة أحد الجوانب الاقتصاديَّة التي حكمت العلاقة بين المغرب الأوسط والسُّودان الغربي، وكما هو معلوم أنَّ الرِّحلة التِّجاريَّة لم تحمل السِّلع والبضائع التي يحتاجها إليها الأخر، وإنَّما حملت معها أيضاً حمولة ثقافيَّة للمجتمعات التي يحلُّ بها التَّاجر، ومن خلال المخالطة وقع التَّأثير، هذا ما أردت ابرازه من خلال هذه الورقة البحثيَّة.

إشكاليَّة الدِّراسة: حتى نُبيَّن الأثر ونرصد التَّغيير الذي طرأ على المجتمع السُّوداني، وأين تجلَّت مظاهره، طرحنا الإشكاليَّة التَّالية: كيف ساهمت المبادلات التِّجاريَّة بين المغرب الأوسط والسَّودان الغربي في ترك أثرٍ وإحداث تغيرات اجتماعيَّة؟

مُستعينين بعدَّة أسئلة استقصائيَّة هي:

- ✓ ما العوامل المساعدة على النَّشاط التِّجاري بين المغرب الأوسط والسُّودان الغربي؟
- ✓ ما المبادلات التِّجاريَّة التي كانت تتم بين البلدين؟

- ✓ ما الآثار الواقعة في البنية الاجتماعيَّة في بلاد السُّودان الغربي من خلال المبادلات التِّجاريَّة؟
- ✓ ما مظاهره التَّأثير التي أحدثتها المبادلات التّجاريَّة في السُّودان الغربي؟

مناهج الدِّراسة: اتبعنا في هذه الدِّراسة ثلاثة مناهج هي:

- **المنهج التَّاريخي**: اعتمدناه لرصد الاحداث التَّاريخيَّة، ومحاولة وضعها في سياقها التَّاريخي حدوثاً وأثراً.
- **المنهج الاستقصائي**: اعتمدناه للقيام بمسحٍ شامل للأثار المترتبة على العلاقة التِّجاريَّة التي كانت قائمة بين البلدين.
- **المنهج الاستقرائي**: اعتمدناه للملاحظة في كيفيَّة حصول عمليات المبادلات التِّجاريَّة وإبراز نتائجها من خلال تصور وقوع الحدث والنَّتيجة المترتبة عنه.

أمَّا التَّحليل فهو الصِّفة الملازمة في كامل الورقة البحثيَّة لاستنطاق الوقائع التَّاريخيَّة، وكيف حصل التَّأثير.

المصادر والمراجع المعتمدة في الدِّراسة: للإجابة عن الإشكاليَّة المطروحة استعنت بجملة من المصادر والمراجع التي تهتم بهذا الموضوع، وفي مقدمتها كتب الجغرافيا والرِّحلة التي كانت المنطلق الأساسي لدراستنا منها: كتاب (المغرب في ذكر بلاد إفريقيَّة والمغرب) لمؤلفه "عبيد الله البكري"، وكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) لصاحبه "الشَّريف الإدريسي"، وكتاب (تحفة النَّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)؛ بالإضافة إلى بعض المراجع منها: كتاب (التَّحولات التي أحدثها الإسلام في المجتمع الإفريقي) لمؤلفه "بشار أكرم الملاح"، وكتاب (الوثنية والإسلام)، وكتاب (بداية الحكم المغربي) لمؤلفه "محمَّد الغربي"، كما استخدمت بعض الرَّسائل الجامعيَّة منها: أطروحة دكتوراه حول (التَّحولات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في السُّودان الغربي) لصاحبها "هواري

رضوان"، وكذا رسالة ماجستير حول (علاقات ممالك السُّودان الغربي بدول المغرب الإسلامي و آثارها الحضارية) لصاحبها "نور الدِّين شعباني"، ناهيك على مراجع أخرى.

الصُّعوبات: ومن أبرزها قلة المصادر التَّاريخيَّة إذْ تُعَدُّ من أولى العوائق التي يصطدم بها الباحث، ناهيك عن التَّشابه الكبير للمعلومة في المتوفر منها، لدرجة أنّ مصدر واحد يغنيك عن العودة إلى البقية؛ غير أنَّ حبَّنا للدراسات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة رفع من عزيمتنا في خوض هذا الموضوع ومحاولة رصد التَّغيير الذي طرأ على المجتمع السُّوداني.

أوَّلاً– المبادلات التِّجاريَّة "الصَّادرات والواردات":

بما أنَّ التِّجارة كانت تتم عبر الصَّحراء، والمعلوم أنَّ تلك الطُّرق[1] محفوفة بالمخاطر والعوائق الطَّبيعيَّة منها والبشريَّة، والتي قدْ تؤدي أحياناً لهلاك القافلة بأكملها، كان لزاما على سالكي تلك الطُّرق أنْ تكون سلعهم المنقولة تتلاءم مع ظروف السَّير وأنْ تتوفر فيها معايير وشروط معينة أشار إليها "إبن خلدون" في مقدمته، كأن تكون تلك السِّلع المنقولة قليلة العوز نظراً لبعد مكانها وشدَّة الغرر في طريقها، فيقلُّ حاملوها ويعزُّ وجودها، فإذا قلَّت وعزَّت غلت أثمانها[2]؛ كما يجب أيضا أنْ تكون السِّلع المنقولة خفيفة الوزن ولا تكون سريعة التَّلف وغالية الثَّمن[3].

فهل توفرت تلك الشُّروط في السِّلع التي كان ينقلها التُّجار المغاربة للسودان، وماهي أهم الصَّادرات والواردات؟

1)– صادرات المغرب نحو السَّودان الغربي: من الصَّادرات نجد:

- **الملح:** الذي كان يؤخذ من مدينة "أوليل" إلى جميع بلاد السُّودان "كأودغشت"، و"غانة"، و"كوغة"، والمناطق الواقعة في الطَّريق إليه، ويُسمى هذا المعدن "تاتنتال". وكان حمل الجمل يساوي ثمنه بين 200 إلى 300 دينار[4].
- **التَّمر:** كان يؤخذ من "وارجلان"، و"سجلماسة"، و"بلاد الزَّاب"، باتجاه بلاد السُّودان[5].

- **الحنطة:** تؤخذ من مدينة "وارجلان"، وبعض المدن الأخرى، إلى مدينة "زغاوة" وكذا مدن السُّودان الغربي الأخرى[6].
- **المنسوجات الصُّوفيَّة والقطنيَّة والكتان:** تُحمل من مدينة "وارجلان" خاصة الثِّياب المصبغة بالحمرة والزُّرقة، باتجاه مدن السُّودان الغربي، وهي: "تكرور"، و"تمبكتو"، و"أودغشت"[7].
- **النُّحاس:** يُحمل من مدينة "وارجلان"، باتجاه "كوغة"، و"أودغشت"، و"تكرور"[8].
- **الألبسة الحريريَّة وحلي النِّساء والفخار المطلي والمزخرف:** كانت هذه المتطلبات البيتوتيَّة، زيادة على الزُّجاج والأصداف والعطور والأفاويح والعمائم، كلها تؤخذ من مدينة "وارجلان" باتجاه مدن السُّودان الغربي[9].

زيادة على هذه السِّلع يوجد سلع أخرى اهتمت بالبعد الثَّقافي تمَّ نقلها من مدن المغرب الإسلامي عبر الحواضر الصَّحراويَّة باتجاه السُّودان الغربي، كالكتب، والأوراق، والمخطوطات العلميَّة، التي كانت تُقدَّم لملوك "تمبكتو"، وكذلك الخيول، وهي البضاعة الأكثر ربحاً[10].

- **الذَّهب:** كان يؤخذ من "غانة"، و"غياروا"، و"أودغشت"، و"تكرور"، و... باتجاه "وارجلان" ومن ثمَّ إلى سائر مدن المغرب الأوسط، فهو محور التِّجارة عبر الصَّحراء مع بلاد المغرب[11].
- **العبيد:** يأتون بهم من "غانة"، ومن "أودغشت" يجلبون سودانيات طباخات تباع الواحدة منهن بـ: 100 مثقال أو أكثر، في "وارجلان" وسائر مدن المغرب الأوسط[12].
- **الجلود والدُّرق اللمطيَّة**[13]: يتمُّ تحميلها من مدن "غانة" و"تمبكتو"، باتجاه مُدن المغرب الأوسط[14].

- **العاج:** يُحمل من مُدن "تمبكتو"، و"غانة"، و"غاو"، باتجاه مدن المغرب الأوسط[15].
- **العنبر:** يتمُّ تحميله من مدينة "أودغشت"، إلى سائر مدن المغرب الأوسط[16].

كذلك **الشَّبُّ** الكواري لا يعادله شبٌّ في الطِّيب[17]. كما ينقل **بيض وريش النَّعام** من مدينتي "تمبكتو" و"أغاديس"، باتجاه مدينة "وارجلان" ومن ثمَّ إلى سائر مدن المغرب الأوسط، حيث يُزيِّن به أهل "وارجلان" بيوتهم، أمَّا ريش النَّعام فتستعمله القبائل في خيامها للتدليل على شرفها وسُمُوِ مكانتها[18].

ومن خلال ما تقدَّم يمكننا تقديم قراءة حول أصناف المواد المتبادلة بين المغرب الأوسط و السُّودان الغربي، وهي:

الصِّنف الأوَّل: تمثل في احتياجات الدَّولة الضَّروريَّة كالملح، والذَّهب، والرَّقيق، هذه السِّلع كانت تقوم بدور جوهري في الحفاظ على الهياكل الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة للدولة، فالذَّهب كان يشكِّل عملة رئيسيَّة، أمَّا الرَّقيق فيمثل اليد العاملة والقوة العسكريَّة، في حين مَثَّلَ الملح ضرورة غذائيَّة.

الصِّنف الثَّاني: يُمثل سِلَعاً كماليَّة تتعلق بالأساس في أصناف للترف، كالأقمشة الغالية الثَّمن والعاج، والمصنوعات الجلدية، والعطور، وريش النَّعام...وبعض الرَّقيق للترف **"الجواري الحسان"**[19]

ولربما كان استعمال هذا النَّوع من السِّلع بهدف ترقية الذَّوق وإشاعة نوع من الأناقة في اللباس، لا سيما الطَّبقات الميسورة.

ثانياً– أثر المبادلات التِّجاريَّة على البنى الاجتماعيَّة:

1)– التَّركيبة السُّكانيَّة للمجتمع: من خلال اطلاعنا على ما ذكرته كتب الجغرافيا والرِّحلة التي عَنِيت بوصف المدن، نلاحظ أنَّ فئة التُّجار استطاعت أنْ تحتل مركزا مُهماً ضمن الهرم الاجتماعي للمجتمع السُّوداني، وشكَّلت طبقة متميزة ضمن نسيجه

المجتمعي، غير أنَّ هذا الحضور كان متبايناً من مدينة إلى أخرى، فنلاحظ الحضور القوّي والتّواجد المكثّف لهذه الفئة في المراكز التّجاريَّة الكبرى التي تعرف حركة اقتصاديَّة دؤوبة وتوافد كبير للتجار المغاربة كمدينة **"أودغشت"** التي أشار "البكري" إلى سكانها بأنَّهم: «من أهل إفريقيَّة وبرقجانة ونفوسة ولواته وزناته ونفزاوة»[20]، بينما وصفها "الحميري" بأنَّ أهلها أخلاط من جميع الأمصار استوطنوها لكثرة خيرها ونفاق أسواقها وتجارتها[21]، وفي كلا النَّصين إشارة واضحة إلى توافد واستقرار التُّجار بهما.

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ أغلب تلك القبائل التي ورد ذكرها في نص "البكري" هي قبائل إباضيَّة المذهب، مما يوحي لنا بأنّ "أودغشت" كانت مركزا تجاريا يؤمُّه الإباضيَّة[22].

ويعود سبب توافد واستقرار الإباضيَّة في بعض مدن السُّودان إلى طبيعة العلاقة الحسنة التي ربطت أمراء بني رستم بملوك السُّودان، فالإمام "أفلح بن عبد الوهاب" كانت له مع أغلب الملوك مودَّةً، لا سيما ملك "الصُّوصو" أو "الكوكو"، فهذه العلاقة من شأنها أنْ تُمكن التُّجار الإباضيَّة للمغرب الأوسط من العبور والإستقرار بالسُّودان. وقد أشارت بعض كتب التَّراجم إلى التَّواجد المبكر للإباضيَّة في تلك المناطق، منهم: "أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي"[23]، وكذلك "أبو صالح الياجراني"[24]، و"علي بن يخلف"[25]، و"هارون بن عمران"[26]، و"فلحون بن اسحاق"[27].

كما أشار "إبن بطوطة" لوجود جماعة من البيضان بقرية "زاغري" يذهبون مذهب الإباضيَّة[28]، وقد ساهم تمركز معاقل الإباضيَّة في أطراف الصَّحراء كـ"وارجلان" و"جبل نفوسة" و"غدامس" في كثرت تردُّدِهم على السُّودان الغربي؛ كما وجود تجار آخرين من مختلف مدن "المغرب الأوسط"، فقد أشارت المصادر لوجود تجار تلمسانيين في القافلة التي إصطحبته للسودان[29].

وعلى غرار مدينة "أودغشت" فقد شهدت المدن الأخرى حضور كبير ومتميز للتجار المغاربة، ويبدوا أنَّ هذا التَّواجد قد أخذ في التَّزايد منذ(ق.5هـ/11م) لدرجة أصبح

فيها للمسلمين أحياء ومدن خاصة بهم، ونص "البكري" الذي يصف فيه "غانة" أبرز نموذج على ذلك، حيث يقول: «غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة بها إثنا عشرة مسجداً أحدهما يجتمعون فيه المسلمون ويؤدون صلاة الجمعة ولها الأئمة والمؤذنون والرَّاتبون وفيها فقهاء وحملة علم... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى الغابة»[30]. ويبدوا أنَّ القسم الخاص بالمسلمين هو القسم الذي يُمثِّلُ مركز الثِّقل بالنِّسبة لغانة، ولهذا بدأ "البكري" وصفه به، كما أنَّ وجود إثنا عشرة مسجداً بها يوحي بأنَّ عدد الوافدين كان كبيراً وأنَّ "غانة" تُشكِّلُ مركز استقطاب كبيرٍ للتجار المغاربة، ولربما نصُ "الإدريسي" يؤكد ذلك، حيث يقول: «غانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السُّودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً وإليها يقصد التُّجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب وأهلها مسلمون»[31].

وإنْ كان في نصوص "البكري" و"الإدريسي" إشارة واضحة لتواجد واستقرار الجالية المغربيَّة في "غانة"، فإنَّ هناك بعض الباحثين ذهبوا لأبعد من ذلك وأشاروا إلى أَنَّ أوَّل حكومة حكمت "غانة" كانت من البيض المهاجرين من الشَّمال الإفريقي، ويرجع ذلك إلى حوالي القرن الأوَّل الميلادي، حيث أشار "السَّعدي" بأنهم "بيضان في الأصل"[32].

وإنْ كان للنَّص المصدري أهميته وقيمته في استقراء الوقائع، فإنَّ للشواهد الأثريَّة قيمتها أيضاً في تأكيد تلك الوقائع التَّاريخيَّة، وبخصوص هذا الموضوع كشفت عمليات الحفر والتَّنقيب التي قام بها بعض الأثريين الأوربيين وفرق بحثهم صحة ما ذكرته النُّصوص المصدريَّة حول "غانة"، حيث تمَّ العثور على آثار لبقايا القسم الإسلامي من مدينة "غانة"، كما دلَّت تلك الآثار على ازدهار المدينة التي تَشغل نحو ميل من الأرض وسكانها مالا يقل عن ثلاثون ألف نسمة[33]، ولم تكن مدينة "غانة" الوحيدة التي انفردت بجزء خاص للمسلمين، بل ظهر هذا الأمر في العديد من المدن التي ورد ذكرها في كتب

الرَّحلة اللذين قدموا لتلك المدن، ومنها: مدينة "يرسني" الواقعة غرب مدينة "غياروا"، حيث أشار "البكري" بأنَّ سُكَّانها كانوا من المسلمين، وأمَّا ما حولها فَهم مشركون، والأمر ذاته ينسحب على مدينة "كوغة" التي تبعد عن "غانة" مسيرة خمسة عشرة يوما[34].

2)– أثر فئة التَّجار في النَّسج المجتمعي السُّوداني: من خلال استقرائنا للنصوص التَّاريخيَّة يتبيَّن لنا أنَّ الجالية المغربيَّة قد شكَّلت فئة معتبرة ضمن النَّسيج الاجتماعي لمجتمع السُّودان الغربي، وفرضت نفسها داخل الهرم الاجتماعي، وما يؤكد ذلك هو وجود مُمثل لهذه الفئة، أطلق عليه لقب **"شيخ المغاربة"**، يقوم مقام القنصل أو السَّفير اليوم، فالجالية المغربيَّة اعتادت على اختيار من يُمثِّلها أمام السُّلطات السُّودانيَّة، ومن خلال تَتَبُعِنَا لمناطق تواجد واستقرار الجالية المغربيَّة بدا لنا أنَّ المغاربة لم يُمثِّلهم شيخ واحد، ومعطيات رحلة "إبن بطوطة" تؤكد ذلك، فالشُّيوخ المغاربة تواجدوا أينما تواجدت الجالية المغربيَّة، ففي مملكة "مالي" على سبيل المثال كان كبير جماعة البيضان هناك **"الفقيه إبن الجزولي"**، وفي "تكدا" كان شيخ المغاربة **"سعيد بن علي الجزولي"**[35]. وفي تقديري أنَّ تواجد شيخ المغاربة ارتبط بأعداد الجالية الموجودة في المدن، ولهذا نرى تواجدهم كان في المناطق التي تعرف تواجدا مكثفاً للمغاربة، وغالبا ما تكون تلك المناطق مراكز تجاريَّة أو تشهد حركة اقتصاديَّة دؤوبة بحكم أنَّ معظم أصناف الجالية كانوا تجاراً.

ومما سبق ذكره يتضح لنا أنَّ توافد المغاربة على بلاد السُّودان كان بشكل كبير، وأغلبهم من فئة التُّجار اللذين استطاعوا تسجل حضورهم داخل المجتمع كفئة مهمة، ستكون حاضرة كذلك بفكرها ومعتقدها وقيمها وعاداتها وتقاليدها، خاصة إذا علمنا أنَّ الفئات التي تواجدت في المجتمع كانت متميزة من حيث النَّوع، فأغلبهم كانوا علماء وفقهاء ناهيك على أنَّ هذه الفئة تمتهن حرفة التِّجارة، ومن طبيعة التِّجارة أنَّها تصل البائع بالمشتري، فهي جِسْرٌ للثقافة ومدٌّ جسور التَّواصل في شتى الميادين، "فالتواصل

الاجتماعي وتبادل الأخبار خلال عمليَّة البيع والشِّراء هي أشياء لا تقل أهمية عن الصَّفقة التِّجارية ذاتها"[36]. بعد هذا التَّأثير لتجار المغرب الأوسط وغيرهم من المغاربة في مجتمع السُّودان الغربي، يمكننا طرح سؤالٍ: أين تجلَّت مظاهر هذا التَّأثير؟ وأين يمكن رصد التَّغيير؟

ثالثاً– مظاهر التَّأثير:

قبل أنْ نخوض في أهم مظاهر تَأثُّر السُّودانيين بالتُّجار لابدَّ وأن نشير إلى أنَّ بلاد السُّودان تقع ضمن الأقاليم البعيدة عن الاعتدال، وأهل تلك الأقاليم أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم كما وصفهم إبن خلدون: «فبناؤهم بالطِّين والقصب وأقواتهم من الذُّرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشَّجر... وأكثرهم عرايا من اللباس، ... وأحوالهم في الدِّيانة لا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة، فالدِّين مجهول عندهم وأحوالهم بعيدة عن الأناسي قريبة من أحوال البهائم»[37]. وبما أنَّ بلاد السُّودان تقع في دائرة هذه الأقاليم فقد عرفوا الكثير من تلك الصِّفات، وما يؤكد ذلك مشاهدات الرَّحالة الذي زاروا بلاد السُّودان ووقفوا على الكثير من تلك الصِّفات، غير أنَّها عرفت نوع من التَّراجع نتيجة المبادلات التِّجاريَّة وانفتاحهم على الشُّعوب الأخرى.

لم تكن الرِّحلة التِّجارية إلى تلك الأصقاع مجرد حمولة مادية – بضائع وسلع – بل تضمَّنت حمولة ثقافيَّة أيضاً، وإنْ كانت الأولى قد حُقِّقَ منها الرِّبح المادي والثَّراء، فإنَّ الأخيرة قد حقَّقَت تطوراً وازدهاراً حضارياً لبلاد السُّودان، وأوَّل مظاهر تأثُّر السُّودانيين بالتُّجار المغاربة ظهر في:

- **المعتقد:** قبل أنْ نتحدث عن تأثُّر أهل السُّودان بالتُّجار في هذا الجانب لا بأس أنْ نقف على ديانة ومعتقدات أهل السُّودان، فقد انتشرت بينهم الدِّيانة الوثنيَّة وجمعت في معظمها بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها، كما اختلفت وتعدَّدت تلك

الاعتقادات باختلاف المناطق والشُّعوب وكان من أهمها: عبادة أرواح الأسلاف[38]، عبادة الدَّكاكير (الأصنام)[39]، الطُّوطميَّة (قوى الطَّبيعة)[40].

غير أنَّ مظاهر الوثنيَّة تلك بدأت تختفي تدريجياً وتتراجع شيئاً فشيْئاً بعد احتكاكهم بالتُّجار المغاربة الوافدين على المنطقة، رغم أنَّ هؤلاء التُّجار قد وَفِدُ قصد التِّجارة فإنَّ هذا لم يمنع من أنْ يكون لتواجدهم في أَرَاضٍ وثنيَّة، بداية صلة وصل بين السَّاكنة والدِّين الجديد.

«فالتَّاجر بِقِيَمِهِ ولباسه ومعاملته يمثل قيماً غريبة على المجتمع القادم إليه»[41]، فتعاملهم مع السُّكان واحتكاكهم بِهم جعلهم يُأَثِّرُون فيهم، خاصة وأنَّ التَّاجر المغربي كان ينقل مع المتاجرة نوعاً من السِّلع لا يتقاضى عليه ثمناً، وإنَّما عناصر ثقافيَّة وحضاريَّة كانت في جملة ما ينقله التَّاجر[42]، ولقد كان لمظهر وسلوك التَّاجر المسلم عاملاً مهما في إقبال أهل السُّودان على الإسلام، فسلوك وصفات التَّاجر المسلم كانت عامل جذبٍ للفرد السُّوداني نحو الإسلام. ومن أهم تلك السُّلوكات:

- **كثرة الوضوء والصَّلاة:** فالتَّاجر المسلم إذا دخل قرية سرعان ما يلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه، بالإضافة إلى حرصه ومواظبته على أداء الصَّلاة في أوقاتها، كما كان منظره في سجوده وسكينته يُضْفِي عليه نوعاً من المهابة والإجلال ما يحرك فطرة الإفريقي الوثني.
- **نظافة البدن والمظهر الجميل والملابس البيضاء:** كانت تجذب الإفريقي وتؤثر فيه **فالوزان** وصف لباس التُّجار المغاربة «بأنَّه لباس جميل وأنَّهم أكثر أناقة وسخاء»[43]، فكان من شأن ذلك كله أنْ يُوَثِّقَ العلاقات بين التُّجار المسلمين وبين المتعاملين معهم ويخلق نوعاً من الجاذبيَّة والتَّقدير، ويتم في هذا الجوِّ تبادل السِّلع والأفكار[44].

- **سمو أخلاقهم وحسن ومعاملاتهم:** عُرف عن التُّجار المسلمين إخلاصهم في عملهم وبعدهم عن الغش وأكل والرِّبا في المعاملات التِّجارية، فقد منع الإمام "عبدالوهاب بن رستم" ابنه "أفلح" من السَّفر لبلاد "الكوكو" خوفاً من أكل الرِّبا وهو ما أشار إليه الدِّرجيني: «.. **قد كان أراد السَّفر إلى جوجو فسأله أبوه عن مسائل الرِّبا فتوقف في مسألة واحدة ولم يجب عنها فأمره أبوه بالرجوع وقال: أقم لئلا تدخل علينا الرِّبا**»[45]. كما أشتهر التُّجار بصدقهم وأمانتهم، فقد وصفهم الوزان بأنَّهم: «أناس منصفون مخلصون جداً وأمناء في تجارتهم وأهم أسفارهم التِّجاريَّة هو الذي يقومون به إلى بلاد السُّودان»[46]؛ فاستمالت كل تلك الصِّفات الحميدة القلوب إليهم واحترامهم وثقة الأهالي بهم، فاقتدى بهم السُّكان في معاملاتهم وتصرفاتهم وسلوكهم اليومي في الحياة، كمـــــا كان لتسامحهم ودفعهم بالقول اللين، دافعاً قوياً للوثنيين حتى يتركوا دين آبائهم والدُّخول في الإسلام[47].
- **الزَّواج وبناء الأسرة:** ومن خلال ما نقله لنا بعض الرَّحالة من أخبار ومشاهدات، نلاحظ وجود نوع من الفوضى في علاقات الزَّواج، والتي لم تكن مُنظمة بالقدر الكافي الذي تتمايز فيه الأنساب[48]، "فالإدريسي" وصفهم بأنَّهم: «.. أكثر النَّاس فساداً ونكاحاً وأغزرهم أبناء وبنات وقَلَّمَا توجد منهم المرأة إلَّا ويتبعها أربعة أو خمسة، وهم في ذاتهم كالبهائم لا يبالون بشيء من أمور الدُّنيا إلَّا بما كان من لقمة أو نكحة وغير ذلك لا يخطر لهم ذكره على بال»[49]، فحياتهم إذن كانت أشبه بحياة حيواناتهم التي يرعونها، ومن أكثر عادات الزَّواج شيوعاً عندهم هو التَّبادل، فالرَّجل الخاطب يعطي هو الأخر بالمقابل أخته أو قريبته لقبيلة خطيبته فتتم المبادلة[50].

كان الزَّواج يشوبه نوع من الاستعباد، وصور الزَّواج تلك تُحيلنا دون شكٍّ للتساؤل حول وضعيَّة وصورة المرأة في مخيال مجتمع السُّودان على اعتبارها عنصراً أساسياً في تكوين الأسرة؟

من خلال ما سبق ذكره يتضح لنا أنَّ صورة المرأة في مخيال الزَّوج ماهي إلَّا مصدر ثروة وخادمة، مهمتها محصورة في الإنجاب، أمَّا بالنسبة لذويها فهي تُمثِّلُ ثروةً تجاريَّة ينظر لها بمنظور مادي، مهامها: خدمة الأرض، خدمة الزَّوج، وكان بعض الشُّيوخ الأثرياء يقتنونا عدداً كبيراً من النِّساء الجميلات ليلدن لهم أولاداً ليسوا من صُلبهم يشتغلون فيما بعد في حقولهم مقابل توفير طعامهم اليومي[51]، فهي عبارة عن آلة مُنتجه لليد العاملة، ناهيك على أنَّه لم يكن للمرأة أيِّ حقوق تُذكر، فلم يكن هناك مُهُور أو صداق أو شيء يحفظ ويَصُون كرامتها، ويبدوا لي أنَّ المرأة خضعت لتلك الأعراف المجتمعيَّة وعُمِلت على أنَّها خُلقت للإنجاب ومُتعة الرُّجل؛ ولهذا لم يكترث بعض النِّساء في المحافظة على عفافهن، إذ يسلمن أنفسهن لمن يزور بلادهم من الأغراب[52]؛ وكـــان نساء "تادمكة" يُبادرن التُّجار القادمين لبلادهم ويأخذونهم إلى بيوتهن[53].

ومع انتشار الإسلام بينهم واعتناق الكثير منهم له، بدأت نظرتهم للزَّواج تَعْرِف نوع من التَّغيير وأخذت تلك الصُّورة تختفي داخل المجتمع، وبرز نمط ومفهوم آخر للأسرة لاسيما بعد استقرار عدد كبير من التُّجار هناك واتخاذهم لزوجات سودانيَّات، خاصة أولئك الذين استقروا هناك، أو كانوا كثيري التَّردد على السُّودان فقد أجبرتهم ظروف العمل على ذلك، والمعلوم أنَّ التَّاجر المسلم «لم يرسم خطاً لونياً بين الأبيض والأسود فهو يأكل ويتزوج من ذوي البشرة السَّوداء ومن ثَمَّ فلا نعجب إذا نظر الزُّنوج للإسلام على أنَّه دين السُّود»[54]، كما أنَّ شُهرة نساء بعض مناطق السُّودان ساهمت في إقبال التُّجار المغاربة على الزَّواج منهن، فقد أشتهر نساء "إيوالاتن" بجمالهن الفائق[55]، وعُرف عن نساء "أودغشت" بأنَّهن «طباخات مُحسنات يحسنَّ عمل الأطعمة الطَّيبة... وأصناف الحلويات»[56]، ومن بين الأسر التي اتخذ أفرادها زوجات سودانيات نجد "أسرة المقري"، حيث أشار صاحب "نفح الطِّيب" لذلك بقوله: «اتخذوا الحوائط والدِّيار

وتزوجوا النِّساء واستولدوا الإيماء»[57]، كما زوج سلطان مدينة "تمبكتو" بعض تجار البربر من بنات بلاده[58].

وشكّلت تلك الزّيجات البذور الأولى لميلاد أسرة جديدة وفق المنهج الإسلامي، قوامها المودَّة والرَّحمة، وزواج مُكتمل الأركان يحفظ للمرأة كرامتها، وأصبح المهرُ حقٌّ من حقوقها، ومُنِحَ الزَّوج حقُّ تَعدُّد الزَّوجات شريطة أنْ يلتزم بما نصَّ عليه الإسلام في أنْ لا يتزوج بأكثر من أربعِ نساء؛ كما كان لتلك المصاهرات دورٌ واضحٌ على الأسرة ابتداء من الزَّوجة السُّودانيَّة، التي تغيَّرت ملابسها حيث تعلَّمت ارتداء الملابس الطَّويلة التي تغطي كلَّ جسمها، وبرز في المجتمع نموذج الأسرة البسيطة المكوَّنة من الأب والأم والأبناء، بعد أنْ كانت بعض القبائل مثل: "الهوسا" تعيش في أسرٍ تتكون من ثلاثين إلى مـــائة فرد، فبهذا التَّأثير أصبحت الأسرة السُّودانيَّة المسلمة مستقلة[59].

- **الملبس**: من خلال ما رصدته كتب الجغرافيا والرِّحلة التي اهتم أصحابها برصد ثقافات وعادات الشُّعوب في جميع النَّواحي، نلاحظ أنَّ الغالب على أهل السُّودان سِمَة التَّعرِّي والبعض منهم اتخذ لباسه من أوراق الشَّجر وجلود الحيوانات لستر عورته فأهل "سامة" مثلا «كانوا يمشون عُراة إلَّا أنَّ المرأة تستر فرجها بسيور مَضفورة»[60]، بينما تستتر بعضهن بجلود الحيوانات كأهل "كوكو" حيث كان لباس عامة أهلها الجلود يسترون بها عوراتهم[61]، والأمر ذاته ينسحب على أهل "كوار" و"زغاوة" فهؤلاء جميعهم كانوا «يتخذون من الجلود لباساً يسترون به عوراتهم»[62].

بعد اعتناق مجتمع السُّودان الغربي للإسلام شهدت ظاهرة التَّعري تراجعاً تدريجيا، وبعد المصاهرات التي تمَّت بين البعض منهم ومخالطتهم للتُّجار فقد كان زَيُّ التَّاجر المسلم الجميل وملابسه البيضاء محلَّ اهتمام وجذب وتأثير في السُّودانيين، ويبدوا أنَّ زيَّ المغاربة قد نال إعجاب ملوك السُّودان أيضاً، فقد عبَّر ملك "الصُّوصو" عن إعجابه بهيئة سفير الإمام "**أفلح بن عبد الوهاب**" بقوله: «أنت حسن الوجه، حسن الهيئة والأفعال»[63].

ومِمَّا شَجَّع السُّودانيين على التَّشبه بزي أهل المغرب هو وفرة المنسوجات القطنيَّة والصُّوفيَّة في الأسواق السُّودانيَّة، فقد كانت تلك المنسوجات من أهمِّ السِّلع التي يتمُّ نقلها للسُّودان وتلقى رواجاً كبيراً في العديد من المدن والمراكز التِّجاريَّة، فالمغرب الأوسط عُرف بإنتاجه الوفير للمنسوجات القطنيَّة والصُّوفيَّة واشتهرت العديد من مدنه بالصِّناعة النَّسيجيَّة التي عرفت رواجاً وازدهاراً كبيراً، منها: مدينة "تيهرت" التي اشتهرت «بصناعة المنسوجات الصُّوفيَّة والكتانيَّة والقطنيَّة والحريريَّة وكانت المنسوجات الصوفية والكتانية من أهم السِّلع التي يصدرها الرستميون إلى السُّودان الغربي»[64]، وعُرفت "تلمسان" أيضا بصناعة الصُّوف حيث كان «يعمل فيها من الصُّوف كل شيء بديع ويوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواقٍ ونحوها»[65]، وقد اشتهرت أسرة "عبد الله بن النَّجار" «بامتلاكها لمعامل ضخمة لحياكة الصُّوف الرَّفيعة بتلمسان وكانت ترده التُّجار من كلِّ بلاد إفريقيا والسُّودان الغربي بعد أنْ طوَّر الصِّناعات النَّسيجيَّة ونَمَّاها»[66]، ولقد اختلف اللباس عند أهل السُّودان باختلاف طبقاتهم فكان:

لباس الخاصة (الملوك والوزراء والقادة العسكرين): ففي مملكة "غانة" كان لا يلبس المحيط من أهل دين الملك غيره وغير وليِّ عهده، وكان الملك يرتدي إزارَ حرير يتوشح به، أو بُردة يلتفُ بها وسراويل في وسطه، ونعل شركي في قدمه، وله زيٌّ كامل، كما كان يتحلَّى بحُليِّ النِّساء... ؛ أمَّا الوزراء فكانوا يلبسون ملابس فضفاضة ومآزر[67].

أمَّا في "تادمكة" فكان لباس الملك يتكون من عمامة حمراء وقميص أصفر وسراويل زرقاء[68]، أمَّا في مملكة "مالي" كان لباس الملوك أكثر تأنقاً من غيرهم، فهو عبارة عن: جُبَّة حمراء موبَّرة من الثِّياب الرُّوميَّة التي تسمى "المطنفس"، ويضع على رأسه شاشيَّة ذهب مشدودة بعصابة ذهب، طولها أزيد من شِبر[69]، أمَّا الأعيان فكانوا يرتدون الملابس الفاخرة المزخرفة بالذَّهب فالتُّرجمان كان يرتدي ثياباً من الزَّردخانة ويضع على رأسه عمامة ذات حواشي، وفي رجله خفا ومهاميز[70].

لباس العلماء: كان أبيض اللون مع عمامة زرقاء وفي المناسبات كان القاضي والفقيه والخطيب يرتدون الطيلسان[71].

لباس العامة: اختلف لباس العامة باختلاف المناطق، فلباس عامة أهل "غانة" ملاحف القطن والحرير والدِّيباج مصبَّغة بالحمرة كل على قدر هِمَّتِهِ وأحواله، أمَّا لباس أهل "تادمكة" فثيابهم كان القطن والنَّولي مُصَبَّغَة بالحمرة[72].

أمَّا لباس العامة في مملكة "مالي" فكان شبيه بزي المغاربة لحد كبير وهو عبارة عن «عمائم تُحنَّك مثل العرب وجباب ودراريع بلا تفريج أو تخريج، وقماش ملابسهم لونها أبيض من ثياب القطن الذي يكثر عندهم، وتعرف عندهم بالكميصا، وتنسج في غاية الدِّقة واللطف»[73]، أمَّا التُّجار فكانوا يرتدون الدَّراريع والسَّراويل على اختلاف طولها واتساعها مع عمامة كبيرة يلبسها الرُّجل وكذا المرأة تسمى "ديالاموكو"[74].

ومن الألبسة المغربيَّة التي شاع انتشارها في بلاد السُّودان "البرنس" وهو اللباس التَّقليدي الذي أشتهر به أهل المغرب، ولقد أشار "المقديسي" إلى أنَّ البربر يلبسون البرانس ومنها: اللون الأبيض والأسود، وهو اللباس الخاص بفصل الشِّتاء، وانتشر "البرنس" بين أهل السُّودان وأستُعمل من الصُّوف الخشن وكان ذو اللون البني وكذا الأزرق، ويبدوا لي أن استعماله ربما كان مقتصراً على طبقة الفقهاء والقضاة دون غيرهم، ولعل في إشارة "السَّعدي" عن الفقيه "مُحمَّد ساقوا الونكري" ما يؤكد ذلك، فقد ذكر بأنَّه عندما أدركته صلاة المغرب في سفره بسط برنُسه يصلي عليه[75].

أمَّا بخصوص لباس النِّساء فقد أشار "إبن بطوطة" إلى زيِّ نساء التُّرجمان في مملكة "مالي" وذكر: «..بأنّ عليهن اللباس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذَّهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة»[76]، أمَّا نساء "تمبكتو" و"ولاته" فقد انتشر بينهم لبس الحجاب، فيشير الرَّحالة "مارمول" إلى أنَّ نسوة "تمبكتو" و"ولاته" مُحجَّبات ملثمات

باستثناء الإيماء منهم، كما يرتدي نساء "جني" اللثام المصنوع من القطن باللون الأزرق والأسود[77].

وما يمكن الإشارة إليه أنَّ اللباس كان أكثر تأنُّقاً في المراكز التِّجاريَّة التي يقصدها التُّجار كثيرا، وإنْ كان أهل السُّودان قد تأثروا بالمغاربة في لبس الصُّوف والقطن والحرير فإنَّهم حافظوا على خصوصيتهم الثَّقافيَّة التي نلمسها في طبيعة الألوان المتخذة، كالأحمر، والأزرق، والأصفر، ولايزال استعمال تلك الألوان شائع لليوم في تلك المناطق، كما يمكن أن نلاحظ عمق التَّأثر بالمغاربة في المناسبات التي يبرز فيها تأثرهم بشكل واضح وجليٍّ خاصة في الأعياد ويوم الجمعة، حيث حرص أهل السُّودان الغربي فيها على التَّأنق ولبس النَّظيف وارتداء الملابس ذات اللون الأبيض، وهذا ما أشار إليه "إبن بطوطة" الذي شهد يوم الجمعة ومناسبة العيد في مملكة "مالي"[78].

- **المأكل:** من خلال اطلاعنا على أنواع الأطعمة ببلاد السُّودان نرى أنَّ الغالب على موائدهم أكل الذُّرة، والسَّمك، والألبان، وهذا راجع إلى البيئة الجغرافيَّة؛ وكما هو معلوم أنَّ «النِّيل يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب وفيه أنواع السَّمك وضروب من الحيتان الكبار والصِّغار ومنه طعام أكثر السُّودان يتصيدونه ويملحونه وهو في غاية الحسن والغلظة»[79].

فطعام أهل "سلى" و "التُّكرور" كان من السَّمك والذُّرة والألبان، أمَّا المناطق البعيدة أو التي لا يمر عليها النِّيل اختلف طعامهم عن المدن الأخرى، فطعام سائر أهل "أودغشت" على سبيل المثال كان من الذُّرة، باستثناء الملك وأهل اليسار منهم فإنَّ طعامهم كان من القمح[80]، في حين كان عيش أهل "تادمكة" على اللحم واللبن وحبٌّ تنبته الأرض من غير اعتمال[81].

أمَّا طعام أهل "مالي" اختلف عن بقية المدن وهذا راجع إلى طبيعة مناخها، حيث وصفها "العمري" بأنَّها: «شديدة الحرّ، قشفة المعيشة، قليلة أنواع الأقوات»[82]، ولهذا

كانت أغلب أقواتهم تعتمد على الأرز، فهو يمثل الغذاء الرَّئيسي للسكان نظراً لكثرة زراعته ببلادهم، كما أشتهر عندهم نوع أخر من الحبوب يسمَّى **"الفوني"**، حيث كان يُعجن ويعمل منه الخبز، ومن أنواع المأكولات عندهم **"القطانيا"** و**"القافي"**، وهذا الأخير كان من الأطعمة المفضلة عندهم عن سائر الطَّعام[83].

وعَرفت مملكة "مالي" أنواع كثيرة من الخضروات كالبصل والفقوس العنابي، والباذنجان... ، أمَّا عن الفواكه فقد تنوعت لديهم، ومنها: "الجميز" وهو كثير عندهم، كما كانت تطلع عندهم أشجار برية ذوات ثمار مأكولة مستطابه[84]، وانتقلت إليهم بعض الفواكه عبر تجار المغرب ولاقت إقبال كبير عليها منها **"التَّمر"** الذي يجلب إليهم من بلاد "سجلماسة" أو بلاد "الزَّاب" يجلبه إليهم أهل "واركلان"[85].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ الطَّعام في بلاد السُّودان اختلف باختلاف طبقاتهم فموائد العامة غلب عليها استهلاك السَّمك والأرز والذُّرة، أمَّا موائد الخاصة فقد استعاضت عن ذلك بلحوم الغنم والإبل وقلما تتناول الأسماك، ولم يظهر الأرز في موائدهم إلَّا بشكل ثانوي[86].

أمَّا الجالية المغربيَّة فقد تمسكت بمأكولاتها التي شاعت وسط أهل السُّودان ولاقت استحسانا وسجَّلت حضورها القوي في موائدهم، لاسيما لدى الطَّبقة الخاصة والمتوسطة، ومن بين المأكولات **"الكسكسي"** وهو الغذاء المفضل عند الفئة المترفهة، وعرفوا أيضاً أكل لحم الغنم المطبوخ أو المشوي أو الملفوف في شرائح العجين المتناهي الدِّقة، كما عرفوا من الجالية المغربيَّة أكل لحم الضَّأن والطُّيور كالدَّجاج والإوز[87]، ونجدهم عرفوا أيضاً أنواعاً عديدة من الحلويات، مثل: القطايف والمربى، أمَّا المشروبات فقد شاع عندهم مشروب يعرف بِـ**"عرق البلح "**[88].

و يبدوا لي أنَّ هذا التَّأثير وظهور أصناف من موائد أهل المغرب اقتصر على الطَّبقة الخاصة والميسورة، ولا يمكن أنْ يكون قد طال عامة السُّكان نظرا لتكلفته، ولهذا من الممكن أنْ يكون قد شاع ضمن فئة محددة دون سواها.

وبما أنَّ موائد أهل السُّودان قد تنوعت وتعدَّدت من حيث الأنواع والمصنفات، فلا نستبعد أنْ يكون هناك تنوع في الأواني التي قُدِّمت فيها تلك الأطباق خاصة وأنَّ عمليات التَّنقيب الأثريَّة قد كشفت عن وجود أواني فخاريَّة بمدينة "أودغشت" تعود إلى عهد الدَّولة الرُّستميَّة، كما لا يمكننا استبعاد ذلك خاصة وأنَّ القوافل التِّجاريَّة مع مرور الزَّمن شهدت نقل سلع كماليَّة، وقد كانت بعض الأواني الفخاريَّة والطِّين من ضمن السِّلع التي نقلها التُّجار نحو السُّودان، خاصة أنَّ المغرب الأوسط قد اشتهر بالصِّناعات الطِّينيَّة والفخاريَّة.

- **المسكن:** كان معظم البنيان في بلاد السُّودان من مادة الطِّين، وقد أشار "الإدريسي" إلى ذلك قائلاً: «.. بناء أهل هذه البلاد بالطِّين والخشب العريض الطَّويل»[89]، ولقد تفاوت هذا البنيان بين المدن والبوادي، فالدُّور في الأرياف كانت بسيطة دون أسوار وأغلبها مبني بالطِّين، كدور مدينة "تمبكتو" في بداية تأسيسها والتي كانت عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطِّين ومسقوفة بالتِّبن[90]، كما تميَّز بناء الذَّوات والأغنياء عن بناء العامة بأنَّ حيطان بيوت الأغنياء تُبنى عادة بالآجر، في حين تبنى بيوت الفقراء والمتوسطي الحال بالطُّوب المجفف وقد يخلط بالتِّبن أحيانا، وقد وُجِدت لدى أهل السُّودان عادة بناء حوش أو زريبة أمام المنزل لإيواء الحيوانات فيه[91].

غير أنَّ هذا النَّمط من البناء أخذ يتغيَّر تدريجياً بعد وصول المسلمين للمنطقة واستقرار الكثير منهم بها، سيما فئة التُّجار التي فرضت عليها طبيعة المهنة البقاء لفترات طويلة هناك، الأمر الذي اضطرهم لاتخاذ بيوت في تلك المناطق، ومن ضمن التُّجار المستقرين هناك وورد ذكرهم في بعض المصادر "عائلة المقري" حيث اتخذوا الحوائط والدِّيار وتزوجوا

النِّساء[92]، وبرز هذا النَّمط المعماري الجديد في المدن التي كانت تعرف استقطاباً كبيراً للأجانب خاصة المغاربة منهم وكانت مراكز تجاريَّة مهمة، مثل مدينة "أودغشت" التي كانت أولى المحطات التي يتوقف بها التُّجار الوافدون إلى بلاد السُّودان، فهذه المدينة عرفت تطوراً عمرانياً كبيراً ويجمع المؤرخون المعاصرون الذين اهتموا بِـ"أودغشت" على أنَّ الجاليات التِّجاريَّة المغربيَّة هي من حملت بذرة التَّحضر للمدينة بإشاعتها لأنماط معماريَّة مختلفة، وذلك منذ الرُّبع الأخير من القرن(4هـ/10م)[93].

ويبدوا أنَّ الوضع الدِّيمغرافي الجديد قد أحدث نقلة نوعيَّة بالنسبة للأنماط المعماريَّة وطرق استغلال الفضاء، فقد شاع استخدام الحجارة في البناء والتي ستعتبر من أبرز ملامح العمارة، بعدما كانت خصوصيَّة العمارة السُّودانيَّة يطغى عليها استخدام المواد الطِّينيَّة فالاستخدام المكثَّف للحجارة في البناء شاع ببلاد السُّودان منذ بداية إعمار التُّجار لها، ليظهر نوعين من أنماط العمارة بالمنطقة، عمارة مغربيَّة اعتمدت استخدام الحجارة كعلامة مميزة لها، وعمارة سودانيَّة تعتمد على استخدام الطِّين كعنصر أساسي في البناء، ويمكن لنا أنْ نلمس ذلك في مدينة "غانة" التي تعدُّ أبرز نموذج لامتزاج المؤثرات الحضاريَّة المغربيَّة السُّودانيَّة[94]، فهي «.. مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشرة مسجدا... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمَّى الغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة والخشب السَّنط وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسُّور»[95]، ومع ذلك لم تكن الحجارة تستخدم على نطاق واسع، وفيما عدا قصر الملك كانت البيوت الوحيدة التي تبنى بالحجارة هي بيوت التُّجار الأجانب[96].

تجاوز تأثير البناء مدينتي "أودغشت" و"غانة"، إلى مدينة "أغدس" التي يصفها الوزان: «بأنَّها مدينة مسوَّرة دورها مُتقنة البناء على نمط دور بلاد البربر»[97]، كما عرفت مدينة "تمبكتو" تطوراً في البنيان حتى أصبحت تضاهي المدن الإسلاميَّة الكبرى بعدما تغيَّر نمط

ومواد البناء بها، ويعود الفضل في ذلك إلى المغاربة الذين استقروا بها، خاصة فئة التُّجار، منهم: الذين كانت لهم دكاكين كثيرة بها وبالأخص تجار الأقمشة، فبفضل هؤلاء تغيَّر أسلوب البناء وتمكن سكان المنطقة من إدخال مواد بناء جديدة كالآجر والبناء بالحجارة[98].

وفي مملكة "غانة" يشير "البكري" أنَّ فيما عدا قصر الملك كانت البيوت الوحيدة التي تبنى بالحجارة هي بيوت التُّجار الأجانب وهي بيوت كبيرة الحجم محاطة بالحدائق[99]، ويصف "الإدريسي" قصر ملك "غانة": «.. **بأنَّه على ضفَّة النِّيل وقد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه وزينت مساكنه بضروب من النُّقوشات والأدهان وشمسيات الزُّجاج**»[100]؛ هذا وقد كان ملوك ونبلاء وقواد "غانة" يستقدمون البنائيين من المغرب ليبنوا لهم القصور والبيوت على الطِّراز المغربي، وقد دَلَّت الحفريات على وجود بنايات جميلة مُخطَّطة أحسن تخطيط على طول اثنين من الكيلومترات وسُكَّانها أكثر من ثلاثين ألف نسمة، لها بنايات من طابقين مبنيَّة من حجارة الجبس وجدرانها منقوشة بجبس أصفر[101].

أمَّا مملكة "مالي" فيبدوا أنَّها لم تكتفي بالطِّراز المغربي بل ظهر مزيج بين الطِّراز المغربي والأندلسي خاصة في عهد الملك "**منسى موسى**" الذي أحدث ثورةً حقيقيَّة في الجانب العمراني غيَّرت من شكل المدينة، خاصة بعدما استقدم كلّاً من "أبو إسحاق السَّاحلي" المعروف "**بالطويجين**" و"عبد الله الكومي"، والطَّابع المعماري الذي جسده السَّاحلي ظهر جلياً مع بناء القُبَّة المربعة الشَّكل بالقصر الملكي بمدينة "نياني" عاصمة "مالي"، وهي أكثر ما أبهرت الماليين والمؤرخين الذين كتبوا في هذا الجانب، ويبدوا أنَّ "أبو إسحاق" قد أظهر فيها كل موهبته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ والنُّقوش، وأوصاف هذه القُبَّة كانت تُعبِّر عن ميلاد نموذج جديد العمارة المغربيَّة التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة، خاصة في عهد الزَّيانيين والمرينيين[102].

وبمَّا أنَّه ظهر طراز معماري جديد في بناء المنازل ببلاد السَّودان، يختلف كليا عمَّا كان عليه سابقاً من حيث الشَّكل ومواد البناء، فلا نستبعد وجود تأثيث جديد داخل المنازل يتماشى مع النَّمط الجديد، فبعض المنازل احتوت على أثاثٍ متنوعٍ وفُرشت أرضيها بالسِّجاد والحُصر، ووضع فيها المقاعد والأَسرَّة الفاخرة واسْتُخدِمت الصَّناديق الخشبية لحفظ الملابس وأدوات الزِّينة، إلَّا أنَّ هذا ظلَّ محصوراً في قصور الملوك وحاشيتهم دون العامة[103].

أمَّا العمارة الدِّينيَّة التي كانت ترمز للانتماء الدِّيني لأهل السُّودان فقد برزت العديد من المساجد على النَّمط المغربي، ويشير "شاخت" في دراسة له حول انتشار الهندسة المعماريَّة الدَّينيَّة الإسلاميَّة عبر الصَّحراء، بأنَّ إباضيَّة جنوب "تونس" و"وارجلان" و"ميزاب"، هم الذين نقلوا ملامح الهندسة الدِّينيَّة، فقد انتقلت الصَّومعة ذات الدَّرج من الجنوب التُّونسي إلى السُّودان عن طريق "وارجلان"، و"انتقل" المحراب ذو الشكل المستطيل من "ميزاب"، ويرى كذلك أنَّ الإباضيَّة هم من أدخلوا الإسلام إلى أجزاء من إفريقيا[104]. ولا نستبعد ما ذهب إليه إذا ما نظرنا إلى واقع العلاقات والصِّلات التِّجاريَّة التي ربطت الدَّولة الرُّستميَّة مع السُّودان منذ منتصف (ق2هـ/8م) واستمرت حتى بعد سقوط دولتهم، وكذلك شبكة الطُّرق التي ربطت بين بلاد السُّودان والمغرب الأوسط.

وقد انتشرت العديد من المساجد في بلاد السُّودان تحمل الطَّابع العمراني المغربي، وقد أشار "البكري" إلى وجود إثنا عشرة مسجدا بمملكة "غانة"، كما تولى "السَّاحلي" الإشراف على بناء عدَّة مساجد في كل من "جاو"، و"تنبكتو"، ويذكر "محمود كعت" أنَّ السُّلطان "منسى موسى" صاحب "مالي" قد أنشأ أثناء سفره إلى الحج مسجد في كلِّ مدينة يَمُرُّ بها[105]، وحظي المسجد ودار الخطيب بمكانة رفيعة عند سلاطين "مالي" فكان المغضوب عليهم من قبل السُّلطان والذين يخافون قتلهم يستجيرون بالمسجد وإنْ لم يكن فبدار الخطيب، وهو ما وقع مع الملكة **"قاسا"** زوجة السُّلطان "منسى سليمان" المتآمرة

عليه ولبنات عمّه اللواتي عفا عنهن[106]. وهذه الحادثة تكشف لنا حرمة وقداسة المسجد في مخيال الفرد السُّوداني.

- **الاحتفالات والأعياد:** عُرف عن أهل السُّودان إحيائهم لليالي رمضان الكريم، حيث حظي هذا الشَّهر بكثير من الإجلال والتَّعظيم، وكانت الطُّقوس والشَّعائر الدِّينيَّة تُقام وفق المذهب المالكي[107]، أمَّا عن أجواء العيد ومظاهره فقد نقلها لنا "إبن بطوطة" الذي كان شاهداً عليها في مملكة "مالي" بقوله: «.. في صبيحة العيد يخرج النَّاس إلى الجوامع لأداء صلاة العيد التي يحضرها الملك مرتديا لباس أبيض وعلى رأسه الطيلسان وعادة ما يرافقه إلى الصَّلاة الفقهاء والعلماء وكبار رجال الدَّولة وبعد انقضاء الصَّلاة يقوم النَّاس بتبادل التَّهاني وتوزيع الصَّدقات على الفقراء»[108].

كما احتفل أهل السُّودان الغربي بالمولد النَّبوي الشَّريف[109]، والتي لا نستبعد وصولها لهم عن طريق التُّجار المغاربة.

من خلال ما سبق ذكره نلاحظ مدى تأثر أهل السُّودان بالمغاربة، وكيف اصطبغت احتفالاتهم تلك بالصِّبغة الإسلاميَّة، فالجانب الدِّيني كان حاضراً بقوَّة في مظاهر الاحتفالات؛ لكن هل طال هذا الحضور حتى الأقراح أيضاً أمْ ظلَّ مقتصراً عن الأفراح فقط؟ وكيف نظر أهل السُّودان للموت؟ وماهي أهمُّ الطُّقوس المتعلقة به؟ وما التَّغيير الذي طرأ عليها بعد إسلامهم واختلاطهم بالمغاربة؟

- **طقوس الموت:** كانت الطُّقوس الوثنيَّة هي السَّائدة عند أهل السُّودان فيما يتعلق بالموت، فإذا مات أحد ملوكهم فإنَّهم يدفنون معهم عبيدهم وأدواتهم في حفرة واحدة، إيماناً منهم بأنَّهم سوف يحتاجون إليها[110]، ويذكر "البكري" في هذا الشَّأن أنَّ مِنْ عادات أهل "غانة" إذا مات ملكهم «عقدوا له قبَّة عظيمة من خشب "السَّاج" ووضعوها في موضع قبره ثُمَّ أتو به على سرير وأدخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وأنيته التي يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه

رجاله ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا عليها الحصر والأمتعة ثم اجتمع النَّاس فردموا فوقها بالتُّراب حتى تأتي كالجبل الفخم ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلَّا من موضع واحد، ويذبحون لموتاهم الذَّبائح ويُقرِّبون لهم الخمور»[111]، وانتشرت لديهم أشكال من القبور على شكل أهرامات، ومن المحتمل أنَّ هذا النَّوع من الأشكال جاء تأثرا بالمصريين، فقد كان يدفن مع الملك خَدَمُه ولو كانوا من غير دينه، وقد ذكر "إبن بطوطة" أن أحد المسلمين قد نجا من هذا بعدما افتداه والده بمال[112].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ طقوس الدَّفن هذه لم تكن متاحه للجميع وإنَّما اقتصرت على الملوك وعِلِّيَّةَ القوم، ويبدوا أنَّ الفوارق الاجتماعيَّة لم يسلم منها حتى الموتى فـ"العمري" يذكر أنَّ في مملكة "مالي" «لا يدفن عندهم ميّت إلَّا إذا كان ذا قدر وحشمه وإلَّا فكلُّ من كان سوى هؤلاء ممن لا قدر له، فإنَّه يرمى ميتا في الفلاة كما ترمى باقي الميتات»[113]، وبعد دخولهم للإسلام واحتكاكهم بأهل "المغرب" أخذت هذه العادات تتلاشى وتغيرت نظرتهم للموت بعدما أدركوا أنَّه حقٌّ على جميع البشر، وأنَّ دفن الميت يتطلب بعض الإجراءات حَدَّدَهَا الإسلام ووجب على المسلم العمل بها، فظهر عندهم تغسيل الميت وتكفينه وفق الشَّريعة الإسلاميَّة واستخدام العطور لتطييب الجُثَّة ودفنها في المقبرة، بحضور أهل وأقارب المتوفي، حيث ظهرت عندهم عدَّة مقابر كما ساهم بعض من علماء "المغرب الأوسط" في إحداثها، حيث أشار "السَّعدي" خلال ترجمته للفقيه **"أبو القاسم التُّواتي"** بأنَّه أحدث مقبرة بعدما امتلأت المقبرة القديمة وجعل لها سوراً[114].

كما كان يتصدق على الميت ويُتلى عليه القرآن، وقد حضر "إبن بطوطة" لمراسيم عزاء في مملكة "مالي" تَمَّ خلالها قراءة القرآن، وكانت مراسيم العزاء بحضور القاضي والفقيه والخطيب فضلا عن حضور الملك، وكان النَّاس يسيرون في جنازة الميت في خشوع كبير يتصدرها في الغالب طلبة القرآن والعلماء، وكان عدد المشيِّعين للجنازة يتوقف على

مكانة الميت الاجتماعية[115].

والجدير بالذِّكر أنَّه كلَّما زاد انتشار الإسلام وتأثرهم بالمسلمين، كلما قَلَّت العادات الوثنيَّة عند أهل السُّودان، فمن العادات التي تضاءل في المجتمع، نجد:

عادة توريث إبن الأخت: التي كانت معمول بها في المجتمع السُّوداني، وهي توريث إبن الأخت بدلاً من الابن، وقد أشار لها عدد من الجغرافيين "فَالبكري" خلال حديثه عن أهل "غانة" أشار لذلك بقوله: «.. ومذهبهم أنَّ الملك لا يكون إلَّا في إبن الأخت لأنَّه لا يشكُّ فيه، وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به»[116]؛ والأمر نفسه أكَّدَهُ "إبن بطوطة"[117].

ومن العادات الأخرى التي شاعت وسط المجتمع اتخاذ الخليلات ولقد أشار "إبن بطوطة" لهذه الظَّاهرة التي أثارت غضبه وسخطه خلال حديثه عن أهل "إيوالاتن"، فقال: «.. وأمَّا نساؤهم فلا يحتشمن من الرِّجال ولا يحتجبن... والنِّساء هناك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرِّجال، وكذلك للرجال صواحب من النِّساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا يُنكر ذلك»[118].

وكما أنَّ المجتمع عرف تراجعاً كبيراً لبعض العادات السَّيئة، فإنَّه عرف في المقابل شيوع الكثير من العادات الحسنة التي لاقت إعجاب العديد من الرَّحالة الذين زاروا المنطقة، ومن بينهم "إبن بطوطة" الذي أبدى إعجابه بجملة من الخصال الحميدة التي شاهدها عند أهل "مالي" منها:

- ✓ الحرص والمواظبة على أداء الصَّلاة والالتزام بها، وكذا أولادهم.
- ✓ لبس الثِّياب البيضاء الحسان يوم الجمعة.
- ✓ العناية والاهتمام بحفظ القرآن، ومن تقاعس عاقبوه[119].
- ✓ قلَّة الظُّلم فهم أبعد النَّاس عنه وسلطانهم لا يسامح أحد في شيء منه.

✓ اتصافهم بالأمانة وعدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد أحد الموثوقين حتى يأخذه مستحقه[120].

رابعاً– خاتمة (استنتاجات):

بعد هذه الفسحة من التّنقيب والاستقصاء، توصلت إلى مجموعة من الاستنتاجات يمكن إِرَادُهَا كالتّالي:

✓ كان التّواصل بين بلاد المغرب الأوسط والسُّودان الغربي منذ ما قبل التّاريخ، تواصلاً مبنياً على المبادلات التّجاريَّة، وضمان المصالح الاقتصاديَّة لكلاَ الضّيفتين ما يُعزز التّأثير والتّأثر في الجانبين.

✓ اهتم بنو رستم بالمبادلات التّجاريَّة مع بلاد السُّودان الغربي وجعلوها عاملاً رئيساً في التّوغل صوب هذا المجتمع، ومحاولة نشر الإسلام بين إفراده، ونجحوا في ذلك إلى أبعد حدٍّ في تلك الفترة، بناء على الإشارات الواردة في كتب الرَّحالة والجغرافيين. كما واصلت الدُّول الإسلاميَّة التي أتت من بعد الدُّولة الرُّستميَّة وسارت في نفس الاتجاه وبنفس المنحى، زيادة على البعد الجهادي والدَّعوي الذي قام به المرابطين.

✓ كان للتجار الدُّعاة دوراً رئيسياً في الولوج إلى البنى الاجتماعيَّة ببلاد السُّودان الغربي، من خلال الاستيطان هناك واتخاذ البيوت والزَّواج من نساء السُّودان الغربي، ما أضفى على حضورهم صيغة المواطنة، من خلال رعايتهم لمصالحهم الشَّخصيَّة ومصالح البلاد التي يسكنون بها والعباد المحيطين بهم، علماً أنَّ علاقات المصاهرة تُوَلِّدُ علاقات الخؤلة والعمومة، والخؤلة والعمومة تحفظ حقوق الأبناء، وتربط بربطٍ وثيق بين بلاد المغرب الأوسط والسُّودان الغربي، والنَّماذج المذكورة في متن البحث خير دليل.

✓ لقد أشاع الإسلام من خلال التُّجار المسلمين، الكثير من السُّلوكات والعادات الإسلاميَّة التي تُعبِّر عن النَّقاء والطُّهر، من خلال اتباعه لقاعدة تربويَّة هي: الإفراغ والإحلال، فكان التُّجار يفرغون ما ساء في معتقدات وسلوكات السُّودانيين الوثنيَّة،

ويُحْلِلُونَ في مكانها ما هو إسلامي صرف، بالاعتماد على الحمولة الثّقافيّة التي كانوا يختزنونها بين جنبات فكرهم، فكان لها قوي الأثر في تغير الكثير من معتقدات وسلوكات أفراد بلاد السُّودان الغربي.

✓ تمكّن التُّجار المسلمين من احداث تغيرات شتى، شملت ناهيك عن المعتقد، الكثير من المظاهر المعيشيَّة كالمأكل والمشرب والملبس، وتوغلت في بُنية المجتمع حتى وصلت إلى الدُّور والضِّيع والمعمار المنزلي وكذا المعمار الدِّيني، واستحال بفعل هذا التَّأثير المجتمع السُّوداني من مجتمع وثني يغلب عليه طابع الغاب، إلى مجتمع إسلامي تسوده الحضارة والمدنيَّة بفضل التُّجار وتجارتهم.

الهوامش:

[1] – الطُّرق التي كانت تربط "المغرب الأوسط" ببلاد "السُّودان الغربي، أربعة طرقٍ هي: طريق تلمسان تمبكتو، و طريق تاهرت السُّودان الغربي، و طريق توقرت وارجلان إلى جاو، و طريق توات السُّودان الغربي. **ينظر**: عطلي مُحمَّد: «الدَّور الحضاري للطرق التِّجاريَّة بين الشَّمال الإفريقي والسُّودان الغربي»، **مجلة العلوم الإسلاميَّة والحضارة، ع.6**، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، الجزائر، أكتوبر/2017م، ص.248 – 249. **وينظر كذلك**: عبد القادر زبادية: الحضارة **العربيَّة والتَّأثير الأوروبي في إفريقيا الغربيَّة جنوب الصَّحراء، ط.1**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص.29.

[2] – عبد الرَّحمان بن خلدون: **المقدمة، ط.3**، دار الشَّرق العربي، بيروت، 2017م، ص.360.

[3] – ك. مادهو يانيكار: **الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية**، تر: فؤاد بلبع، **ط.2**، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998م، ، ص.377.

[4] – محمَّد بن عبد الله الشَّريف الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج.1، ط.1**، مكتبة الثَّقافة الدِّينية، بور سعيد، 2006م، ص.18 – 20. **وينظر أيضاً**: أبو عبيد الله البكري: **المغرب في ذكر بلاد إفريقيَّة والمغرب، (د. ط)**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (ب. س. ن)، ص.171. **وينظر أيضاً**: ابن حوقل النَّصيبي: **صورة الأرض، ط.1**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص.98. **وينظر أيضاً**: مُحمَّد العربي الزُّبيري: **التِّجارة الخارجية للشِّرق الجزائري(1792 – 1830م)، ط.1**، الشَّركة الوطنية للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 1979م، ص.72.

[5] – مُحمَّد بن عبد المنعم الحميري: **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، **ط.1**، مكتبة لبنان، بيروت، 1974م، ص.63 – 64. **وينظر أيضاً**: الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.19.

[6] – الإدريسي: المصدر نفسه، **ج.2**، ص.111.

[7] – علي بن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**، تح: إسماعيل العربي، **ط.1**، منشورات المكتب التِّجاري للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 1970م، ص.91. **وينظر أيضاً**: أبو عبيد الله البكري: **المسالك والممالك**، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري،**ج.2**، **ط.1**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص.850.

[8] – الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.18. **وينظر أيضاً**: البكري: **المسالك والممالك**، المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.850.

[9] – مسعود مزهودي: **الإباضية في المغرب الأوسط**، **ط.1**، المطبعة العربية، القرارة – غرداية، الجزائر، 1996 م، ص.169. **وينظر أيضاً**: عمر سليمان بوعصبانة: **معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان من نهاية الدَّولة الرُّستميَّة إلى زوال سدراته، ط.1**، نشر مديريَّة الثَّقافة لولاية ورقلة، الجزائر، 2008م، ص.176. **وينظر أيضاً**: أمين توفيق الطَّيبي: **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ط.1**، الدَّار العربيَّة للكتاب، تونس، 1997م، ص.188 – 189.

[10] – مُحمَّد العربي الزُّبيري: المرجع السَّابق، ص.72. **وينظر أيضاً**: مارمول كربخال: **إفريقيا**، تح: مُحمَّد حجي وآخرون، **ج.3**، **ط.1**، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1989م، ص.203. **وينظر أيضاً**: الهادي مبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصَّحراء، ط.1**، منشورات الدَّار المصريَّة اللبنانيَّة، القاهرة، 1999م، ص.330.

[11] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.24 – 25. **وينظر أيضاً**: البكري: المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.874.

[12] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.19. **وينظر أيضاً**: البكري: المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.849. **وينظر أيضاً**: مُحمَّد بن بوبكر الزُّهري: **كتاب الجغرافية**، تح: مُحمَّد حاج صادق، **ط.1**، مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، بور سعيد، 1998م، ص.125.

[13] – **الدَّرق اللمطيَّة**: تعتبر الدَّرق اللمطية من أكثر أسلحة بلاد المغرب شهرة، حيث كانت من عوامل قوة جيوش المنطقة، خاصة خلال فترتي المرابطين والموحدين. تتخذ من الجلود ليس فيها خشب ولا عقب، وجمعها درق وأدراق، وتكون في الغالب بيضاوية الشكل، تنسب إلى لمطة من قبائل المغرب. **ينظر**: جمال الدِّين بن منظور: **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، حرف الدَّال، مادة: درق، **مج.2**، **ج.16**، (**د. ط**)، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص.1363. **وينظر أيضاً**: أحمد المقري التِّلمساني: **نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب**، تح: إحسان عباس، **ج.6**، **ط.1**، دار صادر، بيروت لبنان، 1968م، ص.461.

[14] – مُحمّد العربي الزُّبيري: المرجع السَّابق، ص.72. **وينظر أيضاً**: مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.167.

[15] – ك. مادهو يانيكاز: المرجع السَّابق، ص.377.

[16] – البكري: **المسالك والممالك**، المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.850.

[17] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.29 و 117 و 118.

[18] – مُحمّد العربي الزُّبيري: المرجع السَّابق، ص.72. **وينظر أيضاً**: عمر سليمان بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.176 – 177.

[19] – أ. ج. هو بكنز: **التّاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية**، تر: أحمد فؤاد بليغ، **ط.1**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998م، ص.162.

[20] – البكري: **المسالك والممالك**، المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.849.

[21] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.64.

[22] – إبراهيم بحاز: **الدَّولة الرُّستميَّة. دراسة في الأوضاع الاقتصاديَّة والحياة الفكريَّة، ط.2**، منشورات جمعية القرارة – غرداية ، الجزائر، 1993م، ص.213.

[23] – أحمد بن عبد الواحد الشَّماخي: **السِّير**، تح: أحمد بن سعود، **ج.2، ط.2**، منشورات وزارة التُّراث القومي والثَّقافة، مسقط، 1992م، ص.54.

[24] – الشَّماخي: المصدر نفسه، **ج.2**، ص.58. **وينظر أيضاً**: أبو الرُّبيع سليمان بن عبد السَّلام الوسياني: **سير الوسياني**، تح: بوعصبانة عمر بن لقمان، **ج.2، ط.1**، منشورات وزارة الثَّقافة والتُّراث، مسقط، 2000م، ص.802.

[25] – المصدر نفسه، **ج.2**، ص.115.

[26] – مُحمّد صالح ناصر: **دور الإباضيَّة في نشر الإسلام بغرب إفريقيا، ط.1**، منشورات وزارة العدل والأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة، مسقط، 1992م، ص.22.

[27] – المرجع نفسه، ص.23.

[28] – شمس الدِّين بن عبد الله اللواتي(ابن بطوطة): **رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"**، تح عبد الهادي التَّازي، **ج.4، ط.1**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربيَّة، الرِّباط، 1997م، ص.249.

[29] – نفسه: **ج.4**، ص.243.

[30] – البكري: **المغرب**، المصدر السَّابق، ص.175.

[31] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.23.

[32] – إبراهيم علي طرخان: **إمبراطوريَّة غانة الإسلاميَّة، ط.1**، منشورات الهيئة المصريَّة العامة للتأليف والنَّشر، القاهرة، 1970م، ص.21. **وينظر أيضاً**: عبد الرَّحمان السَّعدي: **تاريخ السُّودان**، تح: حماه الله ولد سالم، **ط.1**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2012م، ص.81.

[33] – إبراهيم علي طرخان: المرجع السَّابق، ص.35.

[34] – البكري: **المغرب**، المصدر السَّابق، ص.179. **وينظر أيضاً**: الحميري: المصدر السَّابق، ص.504.

[35] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.245.

[36] – مُحمَّد المنصور: «الوجه الآخر للتجارة. التَّبادل التِّجاري كوسيط ثقافي»، **الذَّاكرة والهوية، ط.1**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة بنمسيك، الدَّار البيضاء، 2013م، ص.50.

[37] – إبن خلدون: المصدر السَّابق، ص.84 – 85.

[38] – شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: **معجم البلدان، ج.3، ط.1**، دار صادر، بيروت، 1977م، ص.142.

[39] – البكري: **المغرب**، المصدر السَّابق، ص.176.

[40] – نعيم قداح: **حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربيَّة، ط.2**، الشَّركة الوطنيَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، 1975م، ص.3. **وينظر أيضاً**: البكري: المصدر السَّابق، ص.174.

[41] – رحال بوبريك: «الإسلام بإفريقيا الصَّيرورة التَّاريخيَّة وأنماط التَّدين بغرب إفريقيا»، **إفريقيا كأفق للتفكير، ج.1**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية "سلسلة الدورات"، الرباط، 2015م، ص.273.

[42] – وجيه كوثراني: **تاريخ التَّأريخ. اتجاهات – مدارس – مناهج، ط.2**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السِّياسات، الدوحة، 2013م، ص. 254.

[43] – عبد الله سالم بازينة: **انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصَّحراء، ط.1**، منشورات جامعة 7 أكتوبر، طرابلس، 2010م، ص.151. **وينظر أيضاً**: الوزان: المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.21.

[44] – عبد الله سالم بازينة: المرجع السَّابق، ص.151.

[45] – أبو العباس أحمد الدِّرجيني: **طبقات المشايخ بالمغرب**، تح: إبراهيم طلاي، **ج.2، ط.1**، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م، ص.320.

[46] – مُحمَّد الحسن الوزان: **وصف إفريقيا**، تر: مُحمَّد حجي و مُحمَّد الأخضر، **ج.2، ط.2**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص.21.

[47] – عبد الله بن سالم بازينة: المرجع السَّابق، ص.152.

[48] – حسين مرزوقي: **بلاد السُّودان في كتب الجغرافيين والرَّحالين العرب والمسلمين إلى حدود القرن الثَّامن الهجري، ط.1**، مجمع الأطرش للنَّشر والتَّوزيع، تونس، 2018م، ص.205.

[49] – الإدريسي: المصدر السّابق، ج.**2**، ص.110.

[50] – بشار أكرم الملاح: **التّحولات التي أحدثها الإسلام في المجتمع الإفريقي، ط.1**، دار غيداء للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2013م، ص.88.

[51] – نعيم قداح: المرجع السّابق، ص.179.

[52] – بشار أكرم الملاح: المرجع السّابق، ص.86.

[53] – البكري: **المغرب**، المصدر السّابق، ص.182.

[54] – زيد بن محمد الرماني: «التُّجار الدُّعاة»، **شبكة الألوكة**، ينظر الموقع الإلكتروني: http://cp.alukah.net/sharia/0/ 24062/. تاريخ الاطلاع: يوم 2020/9/20م، على الساعة: 10:06.

[55] – إبن بطوطة: المصدر السّابق، ج.**4**، ص،245. **وينظر أيضاً**: البكري: **المغرب**، المصدر السّابق، ص.182.

[56] – البكري: المصدر نفسه، ص.158.

[57] – أحمد بن مُحمّد المقري: المصدر السّابق، ج.**5**، ص.205.

[58] – مارمول كربخال: المرجع السّابق، ج.**3**، ص.202.

[59] – بشار أكرم الملاح: المرجع السّابق، ص.129. **وينظر أيضاً**: نور الدّين شعباني: **علاقات ممالك السُّودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية بين القرنيين الخامس والتاسع الهجريين**، رسالة ماجستير(غير منشورة)، تخ: تاريخ المغرب الإسلامي، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الجزائر.**2**، الجزائر، 2006م، ص.206.

[60] – الحميري: المصدر السّابق، ص.299.

[61] – أبو العباس أحمد القلقشندي: **صبحى الأعشى، ج.5، ط.1**، المطبعة الأميريّة، القاهرة، 1915م، ص.285.

[62] – الإدريسي: المصدر السّابق، ج.**1**، ص.28. **وينظر أيضاً**: أبو العباس أحمد القلقشندي: المصدر السّابق، ج.**1**، ص.285.

[63] – سليمان باشا بن عبد الله الباروني: **الأزهار الرّياضيّة في أئمة وملوك الإباضيّة**، تح: محمّد علي الصُّليبي، ج.**2**، ط.1، دار الحكمة، لندن، 2005م، ص.223.

[64] – مُحمّد عبده سوادي و صالح عمار الحاج : **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط.1**، منشورات المكتب المصري، القاهرة، 2004م، ص.223.

[65] – مُحمّد بن بوبكر الزُّهري: المصدر السّابق، ص.113.

[66] – مُحمَّد بن مرزوق التِّلمساني: **المناقب المرزوقيَّة**، تح: سلوى الزَّاهري، **ط.1**، منشورات وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة بالمملكة المغربية، مصبعة النَّجاح الجديدة، الدَّار البيضاء، 2008م، ص.188.

[67] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.24. **وينظر أيضاً**: البكري، **المغرب**، المصدر السَّابق، ص.175.

[68] – البكري: نفسه، ص.181.

[69] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.257. **وينظر أيضا**: ك. مادهو يانيكار: المرجع السَّابق، ص.467.

[70] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.257.

[71] – مُحمَّد الغربي: **بداية الحكم المغربي في السُّودان الغربي " نشأته وآثاره"**، اش: نقولا زياده، **ج.1**، **ط.1**، مؤسسة الخليج للطباعة والنَّشر، الكويت، 1982م، ص.609.

[72] – البكري: المصدر السَّابق، ص.176. **وينظر أيضا**: الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.24.

[73] – القلقشندي: المصدر السَّابق، **ج.5**، ص.299.

[74] – مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، **ج.1**، ص.609.

[75] – عبد الرَّحمان السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.118.

[76] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.260.

[77] – مارمول كربخال: المرجع السَّابق، **ج.3**، ص.193.

[78] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.260.

[79] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.20.

[80] – الحميري: المصدر السَّابق، ص63.

[81] – نفسه، ص.128.

[82] – شهاب الدِّين بن يحي العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح: كامل سلمان الجبوري، **ج.4**، **ط.1**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2010م، ص.49.

[83] – نفسه، ص.50 – 51.

[84] – شهاب الدِّين بن يحي العمري: المصدر نفسه، ص.51. **وينظر أيضاً**: الهادي مبروك الدَّالي: المرجع السَّابق، ص.78.

[85] – الحميري: المصدر السابق، ص.64.

[86] – مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، **ج.1**، ص.612.

[87] – مسعود خالدي: «أثر الجاليات العربيَّة والبربريَّة على الحياة الاجتماعيَّة في السُّودان الأوسط والغربي بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين/الحادي عشر والسَّادس عشر الميلاديين»، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، مج.11**،

ع.**1**، تصدرها كلية الآداب والحضارة الإسلاميَّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة بقسنطينة – الجزائر، جوان/2018م، ص.184.

[88] – ك. مادهو يانيكار: المرجع السَّابق، ص.486.

[89] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.20.

[90] – بشار أكرم الملاح: المرجع السَّابق، ص.192. **وينظر أيضاً**: الوزان: المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.165.

[91] – عبد القادر زباديه: **الحضارة العربيَّة والتَّأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصَّحراء، ط.1**، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1989، ص.88.

[92] – المقري: المصدر السَّابق، **ج.5**، ص.205.

[93] – أحمد مولود ولد أيده: **الصَّحراء الكبرى مدن وقصور، ج.1، ط.1**، وزارة الثَّقافة، الجزائر، 2009م، ص.76.

[94] – أحمد مولود ولد أيده: المرجع نفسه، ص.54.

[95] – البكري: المغرب، المصدر السَّابق، ص.175.

[96] – ك. مادهو يانيكار: المرجع السَّابق، ص.488.

[97] – الوزان: المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.171.

[98] – مسعود خالدي: «أثر الجاليات العربيَّة والبربريَّة...»،المرجع السَّابق، ص.193. **وينظر أيضاً**: الوزان: المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.165.

[99] – البكري: **المغرب**، المصدر السَّابق، ص.175. **وينظر أيضاً**: ك. مادهو يانيكار: المرجع السَّابق، ص.487.

[100] – الإدريسي: المصدر السَّابق، **ج.1**، ص.20.

[101] – مسعود خالدي: «أثر الجاليات العربيَّة والبربريَّة...»،المرجع السَّابق، ص.191.

[102] – نور الدِّين شعباني و زينب جعني: «الفن والعمارة بمملكة مالي»، مجلة المعارف للبحوث والدِّراسات التَّاريخيَّة، **مج.2، ع.4** تصدر عن كلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر – الوادي، الجزائر، أفريل/2016م، ص.249.

[103] – بشار أكرم الملاح: المرجع السَّابق، ص.194.

[104] – تادايوش ليفيتسكي: **دراسات شمال إفريقيَّة**، تر: أحمد بومزكو، **ج.2، ط.1**، منشورات مؤسسة تاوالت الثَّقافيّة، كاليفورنيا، 2006م، ص.52.

[105] – البكري: المغرب، المصدر السَّابق، ص.175. **وينظر أيضاً**: محمود كعت التُّنبكتي: **تاريخ الفتاش**، تع: آدم بمبا، **ط.1**، مؤسسة الرِّسالة ناشرون، دمشق، 2014م، ص.122.

[106] – تقي الدِّين عارف الدُّوري و خولة شاكر الدِّجيلي: **تاريخ المسلمين في إفريقية، ط.1**، دار الكتب الوطنيَّة، أبو ظبي، 2014م، ص.237. **وينظر أيضاً**: إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.263.

[107] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.256. وإسماعيل العربي: **الصَّحراء الكُبرى وشواطئها**، المرجع السَّابق، ص.306.

[108] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.260.

[109] – إبن بطوطة: المصدر نفسه، **ج.4**، ص.270.

[110] – بشار أكرم الملاح: المرجع السَّابق، ص.203.

[111] – البكري: **المغرب**، المصدر السَّابق، ص.176.

[112] – حسين مرزوقي: المرجع السَّابق، ص.207.

[113] – العمري: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.54.

[114] – عبد الرَّحمان السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.194 – 195.

[115] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص255. **وينظر أيضاً**: بشار أكرم الملاح: المرجع السَّابق، ص.204.

[116] – البكري: **المغرب**، المصدر السَّابق، ص. 175.

[117] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.245. **وينظر أيضاً**: مبروك الدَّالي: المرجع السَّابق، ص.316.

[118] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.4**، ص.245 – 247.

[119] – إبن بطوطة: المصدر نفسه، **ج.4**، ص.264. **وينظر أيضاً**: أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.203 – 2014.

[120] – إبن بطوطة: المصدر السَّابق، ص.264.